

العلم الحديث والعمران

للاستاذ نقولا الحداد

يقوم عمران البلاد على نتاج العلوم الطبيعية والرياضية والاجتماعية ، ودماره يقوم على هذه أيضاً .

المدنية الغربية الحديثة هي مجموعة الاختراعات المادية العملية العجيبة التي أثمرها هذا العقل الإنساني التقدير في القرن الماضي ونصف الحاضر مستندة إلى العلوم الرياضية والطبيعية ومقترة بتوسع الشؤون الاجتماعية من اقتصادية وسياسية وصحية .

وأسوأ مساوئ هذه الاختراعات التي تعاظم شأنها مع تقدم العلم أنها كانت أفضل العوامل في تقويض العمران وإطفاء نور المدنية . فبا ابتكرته هذه المدنية الحديثة من علم واختراع كان مقوضاً لأركانها وهادماً لبنائها . وقد يكون في المستقبل العامل الوحيد لفنائها « كدودة القز ما تبنيه يهدمها » .

سقطت هذه المدنية الغربية حتى غلف ضياؤها سطح الكرة الأرضية ، وكادت تنمر النوع الإنساني بلوامع السعادة والهناء ، لولا ما اعتورها من غياهب النزعات السياسية والاقتصادية ، فكانت هذه النزعات تثير ثورات الشعوب والأقوام بعضها على بعض فتطفي تلك اللوامع بألوف منتجات الكيمياء والبخار والكهرباء التي تمتع بها العالمان القديم والجديد مما يعلمه كل إنسان وبألوف تلك المنتجات وما أضافته عقول الحرب إليها يندمر الآن عمران العالم كله . لذلك يقول بعض قصار النظر : « لا كان العلم والاختراع ولا كان هذا الدمار » .

وقد خفي على هؤلاء أن الذب ليس ذنب العلم والاختراع ، وإنما هو ذنب هذا العقل الإنساني العجيب الذي ابتدع هذا العلم بالأرضي الباهن ، ولم يبتدع إلى جنبه خلقاً سماوياً ساطعاً .

لهذا أمكن جيش الشياطين والأبالسة أن يفزوا ملكوت الإنسان ويفتح ويستتب فيه وعلكه . فليس الذنب ذنب العلم ، بل هو ذنب النفس الأمارة بالسوء ، أصلح النفس وطهرها فطهر العلم من عوامل الشر ويعمل للخير وحده . ما ذا كان نصيب

الشرق من هذه المعمعة التي التحم فيها العقل البدع والنفس الأمارة بالسوء .

كان أن الشرق سرق من فردوس الغرب بعض ثمار علمه وشاركه بالتمتع بها ولكنه لم يشاركه في فلاحه ذلك الفردوس وزراعته . على أنه لما جاء دور التدمير أصاب الشرق ما أصاب الغرب من ويلات التدمير . وأقل ما منى به الشرق أنه ازداد عبودية للغرب في السياسة والاقتصاد وغيرها ، وبالتالي أصبحت سعادته الخيرية متوقفة على الفضلة الفاضلة من سعادة الغرب . وهذا الفقر في السعادة جزاء ذلك الفقر في العلم . وكيف يمكن أن تمتنى بالسعادة ونحن لم نشترك مع الغرب في تحصيلها بل نسرق فضلاتها منه ؟

لا يمكن أن نرفع عن رقابنا نير العبودية للغرب إذ لم نبارده في العلم العملي والاختراع والاصطناع . لو كان لنا علم وقوة اختراع وأمكنا أن نخترع الطائرة واللاسلكي والبارجة والنواسة ، إلى غير ذلك مما لا يحصى من الاختراعات لاستحال على الغرب أن يستعبدنا وأن يبتذ ثروتنا وأن يزغزع كياناتنا وأن ينقص عيشنا .

أخذنا العلم الحديث عن الغرب فلأخرج ، ولا عيب أن نقبس العلم منه . الغرب اقتبس قبلنا من الشرق . ولكن أية فائدة عمرانية استفدنا من هذا العلم ؟ هل استفدنا منه أن نخلص من الاتكال على الغرب ؟ هل استطعنا أن نستقل عمرانياً أو اقتصادياً على الأقل ؟ منذ بُني خزان أسوان إلى اليوم ونحن نتحدث عن توليد الكهرباء منه . واضطناع السدود بواسطتها فلماذا لم تولدها ؟ — ليس ذلك لأنه لا يوجد عندنا رأس المال اللازم لهذا العمل العظيم ، ولا لأن الحكومة عاجزة عن تقديم المال ، ولكن ليس عندنا مهندسون كهربائيون يجرؤون أن يقدموا على هذا العمل أو يوثق بكفائتهم . وليس عندنا الآلات والأدوات اللازمة لهذا العمل ولا مصانع لها عندنا . ولذلك نعرض المشروع على المهندسين الأجانب مضطرين . فإذا لم يتفق الأجانب معنا على هذا المشروع لا يتكهرب خزان أسوان . وقس عليه كثيراً من المشروعات الاقتصادية العمرانية الكبيرة التي نحن محرومون منها لقصور فينا . إذاً فإذا استفدنا من العلم الذي اقتبسناه ؟ ما استفدنا إلا أن شبابنا حصلوا على بعض الثقافات الفنية العملية التي تحكمهم من الارتفاق

هذا وراء اليوم ، ولم يمد التقف وقليل الثقافة يرى في سوق الطباعة إلا قليلاً من الأدب الجليل وكثيراً من الأدب السخيف . فكيف يمكن أن تكون لنا مدينة ذاتية خاصة بنا وغير مستمارة وغير مزيفة ؟ لنا فقراء في رجال العلم . ولكننا فقراء في قراء العلم حتى من المثقفين ، وأغنياء بقراء الأدب الفكاهي وقليل من الأدب الراقى الصافي . ولذلك قلّ الذين يؤلفون في العلم ويقدمون لنا ثمرات العلم الحديث .

لولا بعض المجلات التي تعنى قليلاً بطرائف العلم الحديث ، ولولا بعض المؤلفين الذين أغرهموا بالمطالعة والتأليف والنشر لكان عندنا قحط علمي يُعشّون مدينة زائفة .

حبذا لو أمكن إحصاء أقبال القراء على المؤلفات العلمية ذات القيمة لكي نعلم هل نحن جادون في التقدم العلمي ، وأن هذا التقدم يشترنا بأننا مقبلون على مساهمة الغربيين في الانتاج العلمي والاختراع والاكتشاف لكي نستبشر بالاستقلال العمراني الحقيقي وعدم الاضطرار إلى الاتكال على الغرب في بنيان مدينتنا . إذا عرفنا أن للمؤلفات العلمية ونحوها إقبالا من القراء كبيراً عرفنا أننا بنينا عمراتنا وليس الغربيون يشيدونه . هل يأتى من وسيلة لهذا الاحصاء لكي نعلم في أية درجة نحن من التقدم العلمي ؟

تقوى الحرار

فقط . ولكن يمد الحصول على وسائل الاستزاق لم يستمر المثقفون في طلب المزيد من العلم بمد الحصول على الدبلوم التي توصل إلى حرف الارتزاق . قلما ترى مثقفاً يستمر في الدراسة بنية الاستزادة من المعرفة ، ولا ترى مثقفاً قصد البحث في العلم بنية اكتشاف نظرية علمية أو استخراج حقيقة جديدة . والأرجح أن معظم الذين تخرجوا وغنموا الشهادات التي تحوّلهم حق العمل لم يمدوا يفتحون كتاباً لترويض عقولهم وتوسيع معارفهم لكي تحفز أذهانهم للبحث والتفكير والاستنباط .

أكسلا كان هذا الإهمال أم محزراً أم ضعفاً عقلياً أم قلة ثقة بالنفس وتمادياً في الاتكال على الغرب ؟

فلقطة أكثر المثقفين بالمطالعة لا ترى في مطبوعاتنا اليومية إلا النزر اليسير من المؤلفات العلمية المفيدة التي تحتوى على كل ما استجد من الحقائق العلمية ، وكل يوم تظهر معلومات جديدة في العلم . ولكن الذين كانوا في معاهد العلم قبل ظهورها لم يقفوا عليها لأنهم لم يجدوها في مطبوعاتنا الجديدة . وإذ ذك فكأنهم لم يشفقوا الثقافة التامة .

لا ترى من المطبوعات الجديدة عندنا واحداً في المائة حتى ولا واحداً في الخمسة من المؤلفات العلمية التي تلم بكل جديد من العلم . لا ترى إلا مئات المؤلفات في الأدب والقصص واللغة والتاريخ الخ . ولكن بكل أسف لا تقوم المدينة على الأدب . ولولا ما تقتبسه من علم الغرب لكانت بلا مدينة عصرية نجارى بها العالم .

الأدب ليس قوام المدينة وإنما هو حلية لها . فإذا كانت المدينة مزينة بأجل الحلى وأتمن الجواهر ولكن على بدنيتها لطمار الجهل العلمي فهل تقول إنها حسنة رائمة الجمال ؟

وكيف تحيا وترعرع وهي بدن سقيم وجسم ضعيف . وكيف يبدو جمالها وهي لاقاب ولاروح . ليس بالقصائد والقصص وروائع الأدب اخترعت الطيارة والسيارة واللاسلكي والسينما والمطبعة إلى غير ذلك من ألوف الاختراعات التي يتمتع بها البشر الآن . الأدب وحده لا يبنى مدينة أو عمراناً بل هو ثانوى في بناء العمران وإنشاء المدينة .

يكل أسف نقول إن الأدب طنى عندنا على العلم حتى كاد يختفى

بصر قريباً كتاب

دفاع عن البلاغة

بقلم

أحمد حسن الزيات